رؤية تحليلية نقدية
لتأريخ قيام دولة الغساسنة

د. إبراهيم محمد بيومي مهران

أستاذ التاريخ القديم المساعد

كلية الآداب – جامعة عين شمس



رؤية تحليلية نقدية لتأريخ قيام دولة الغساسنة

تهدف هذه الدراسة إلى السعي في محاولة لتحليل ونقد الظروف والأوضاع التي تسببت، مباشرة أو بشكل غير مباشر، في قيام دولة الغساسنة، حيث خطت أقلام المؤرخين، الأقدمين والمحدثين، وأيضاً الباحثين في التاريخ القديم، عدداً من الكتابات والدراسات، لا نستطيع أن نصفها بالغزيرة، ولكنها اختلفت في طيات سطورها في مواضع كثيرة عن هذه الدولة وأحوالها، وليس من الضروري أن تكون كل كتابات الآخرين هنا صحيحة في مجملها، فقد يكون الآخرون قد جانبهم الصواب في مواضع، وجانبهم الخطأ، بغير قصد، في مواضع أخرى، لأسباب عديدة، سنعرض أبرز ما لاحظناه منها.

وحتى أن الدارسين لتاريخ دولة الغساسنة أحياناً ما يقصرون الكتابة على شخصية أو أكثر بقليل، وأعني على وجه التحديد اختيار "الحارث بن جبلة" المعروف بالحارث الأكبر، وولده "المنذر"، دون غيرهما من سائر حكام وملوك الأسرة، بسبب وضوح الشخصيتين وغنى تاريخهما عن غيرهما، ولدور كل منهما الظاهر في تاريخ العرب القديم، وبخاصة الأب، حيث يعد الحارث الأكبر هو أول حاكم نعرف من أمره شيئاً واضحاً يذكر من أمراء آل جفنة.

Critical Analytical view of the history of The Ghassanids

The aim of this study is to attempt to analyze and critique the circumstances and conditions that have directly or indirectly caused the establishment of The Ghassanids State. Historians, historians and historians have written many writings and studies, but it differed in the folds of its lines in many places about this state and its conditions, and it is not necessary that all the writings of others here are true in their entirety, others may have their right side in places, and their wrong side, inadvertently, elsewhere, for many reasons, what we noticed from them.

Even the scholars of the history of The Ghassanids sometimes fail to write about a little more or more, namely, the choice of "Harith bin Gabalah" known as the Great Harith, and his son Al-Munzir, without another rulers and kings of the family, because of the clarity of the characters and their rich history. , And the role of each of them is apparent in the history of the ancient Arabs, especially the father, where the largest heather is the first ruler know something clear from the princes of Al-Jifna.

قبل أن يطوي تاريخ العرب القديم آخر صفحاته، تظهر لنا في نهاياته دولة الغساسنة[١]، التي قامت في شمال شبه الجزيرة العربية، وليس هناك من أحد يستطيع أن يزعم بأن هذه الدولة كانت مماثلة لغيرها من الدول والممالك أو الإمارات المعاصرة لها، من حيث النشأة، والشكل العام، والتنظيم السياسي، وإدارة شئونها الداخلية والخارجية، ولا حتى من ناحية استمرارية وجودها، فلم تكن دولة الغساسنة سوى كيان خلق لكي يحاكي جيرانه، ولأهداف سياسية من الدرجة الأولى، فما هي إلا مجرد ولاية أو دويلة حاجزة أو حدية Buffer State ذات وضع خاص بها، ميزها عن سائر الدول والممالك التي عرفناها في الجزيرة العربية، ولم يكن يشبهها في ظروف نشأتها وصفاتها سوى دويلة أخرى، كانت تعاصر ازدهارها، خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وهي دولة اللخميين المعروفة بالمناذرة[٢] في الحيرة بالقرب من ضفاف الفرات.

وتهدف هذه الدراسة إلى السعي في محاولة لتحليل ونقد الظروف والأوضاع التي تسببت، مباشرة أو بشكل غير مباشر، في قيام دولة الغساسنة، حيث خطت أقلام المؤرخين، الأقدمين والمحدثين، وأيضاً الباحثين في التاريخ القديم، عدداً من الكتابات والدراسات، لا نستطيع أن نصفها بالغزيرة، ولكنها اختلفت في طيات سطورها في مواضع كثيرة عن هذه الدولة وأحوالها،

---

[1] تنتمي قبائل غسان إلى مازن بن الأزد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان، وكانوا يسكنون وادي قحطان باليمن. انظر: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، تحقيق لجنة من الأساتذة بمكتبة النجف الأشرف، بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٦٦، ص ١١٦.

[2] أصلهم قبائل عربية هاجرت من اليمن في أوائل القرن ٣م تقريباً، وإبان سقوط الأسرة البارثية وقيام الأسرة الساسانية، وسكنوا الحيرة، عند منعطف الفرات نحو دجلة، ثم تحولت المنطقة مع الأيام إلى إمارة الحيرة، التي أصبحت حصناً للفرس يحميهم من هجمات البدو الرحل. راجع: آرثر كريستينس: **إيران في عهد الساسانيين**، ترجمة الدكتور يحي الخشاب، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٨٢. وهناك من يرى أن الحيرة مدينة بارثية في الأصل. انظر: السيد عبد العزيز سالم: **دراسات في تاريخ العرب، الجزء الأول: عصر ما قبل الإسلام**، الإسكندرية ١٩٦٧، ص ٣١٨؛ Musil, A., **The Middle Euphrates**, New York : American Geographical Society, 1927, p. 102.

وليس من الضروري أن تكون كل كتابات الآخرين هنا صحيحة في مجملها، فقد يكون الآخرون قد جانبهم الصواب في مواضع، وجانبهم الخطأ، بغير قصد، في مواضع أخرى، لأسباب عديدة، سنعرض أبرز ما لاحظناه منها.

وحتى أن الدارسين لتاريخ دولة الغساسنة أحياناً ما يقصرون الكتابة على شخصية أو أكثر بقليل، وأعني على وجه التحديد اختيار "الحارث بن جبلة" المعروف بالحارث الأكبر، وولده "المنذر"، دون غيرهما من سائر حكام وملوك الأسرة، بسبب وضوح الشخصيتين وغنى تاريخهما عن غيرهما[٣]، ولدور كل منهما الظاهر في تاريخ العرب القديم، وبخاصة الأب، حيث يعد الحارث الأكبر هو أول حاكم نعرف من أمره شيئاً واضحاً يذكر من أمراء آل جفنة.

علاوة على أن العديد من الباحثين اليوم، يؤثر الواحد منهم أن يبتعد عن الموضوعات والفترات التاريخية التي يكتنفها لون من الغموض أو اللبس، أو يعمد إذا اضطر للخوض فيها إلى أن يلتف حولها من بعيد، تجنباً للوقوع في أخطاء التأريخ، أو ربما مضطراً بسبب ندرة المادة العلمية، أو قد يكون السبب هو عدم المقدرة على تحليل الأحداث المتوفرة ونقدها، للخروج بنتائج تخدم الموضوع.

وعلى أية حال، فما يزال تاريخ دولة الغساسنة حتى اليوم يكتنفه الكثير من الغموض، الذي أدى حتماً إلى اختلاف وتباين في ما كتب عنها، ووقوع اللبس بين الباحثين، وعدم الدقة في إظهار الحقائق، ويرجع ذلك إلى أسباب ظاهرة ومحددة، يمكننا أن نحصر أبرزها فيما يلي:

أولاً: قلة المصادر التاريخية التي وصلتنا عن الغساسنة بشكل عام.

ثانياً: امتزاج الحقائق الواردة في المصادر بالعديد من الأساطير، مما أدى إلى الانحراف عن كبد الحقيقة.

---

3 Smeaton, W., "The Ghassanids", A Disseration Submitted to The Faculty of The Division of The Humanities in Candidacy for The Degree of Doctor of Philosophy, Department of Oriental Language and Literature, **The University of Chicago**, August 1940, p. 5

ثالثاً: أن المادة التي قدمها لنا الإخباريون[4] عن الغساسنة ضعيفة في مجملها وغير حاملة لكثير من التفصيلات، ونعزو ذلك إلى قلة معرفتهم بهم.

رابعاً: أن مؤرخي العرب اقتصروا على الجوانب الأدبية من تاريخ الغساسنة دون الاهتمام بالجوانب السياسية.

خامساً: اختلاط أخبار الغساسنة بأخبار القبائل العربية التي سبقتهم في الهجرة إلى سورية، ودانت مثلهم بالنصرانية، وكذلك خضعت لسلطان الرومان.

سادساً: أن معظم القوائم المعروفة لملوك الغساسنة قد أخذت عن ابن الكلبي[5]، ومن ثم فلا تتفق المصادر العربية مع مثيلاتها اليونانية إلا في النذر اليسير.

سابعاً: حدوث خلط عند المؤرخين أحياناً، بسبب تكرار أسماء الحارث والمنذر والنعمان بين عدد من حكام الغساسنة.

---

4 الإخباريون هم المؤرخون العرب المسلمون الذين كتبوا في العصر الإسلامي، بداية من عهد معاوية بن أبي سفيان، في أواسط القرن ١هـ/ أواخر القرن ٧م. انظر: إبراهيم محمد بيومي مهران: **في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم**، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٣٠٠.
وأهم كتب الإخباريين التي تناولت أخبار العرب قبل الإسلام بصفة مستقلة هي: "أخبار اليمن" لعبيد بن شرية (٦٨٠م)، و"التيجان في ملوك حمير" لوهب بن منبه (سنة ٧٢٨م)، و"الأصنام" لابن الكلبي (سنة ٨١٩م)، و"الإكليل" و"صفة جزيرة العرب" للهمداني (سنة ٩٥٢م)، و"سنى ملوك الأرض والأنبياء" لحمزة الأصفهاني (أواسط القرن ١٠م)، و"ملوك حمير وأقيال اليمن" لنشوان الحميري (القرن ١٢م). انظر: عبد المنعم عبد الحليم سيد: **تاريخ الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام**، الإسكندرية، كي تي سي للمعدات والأدوات المكتبية، ٢٠٠٦، ص ١٩.

5 عاش ابن الكلبي في عهد لا يبعد كثيراً عن العصر الذي تناوله في كتابه، ومما ساعد على دقة الرجل أنه كان يصف أشياءً ملموسة، ظلت معروفة للعرب حتى ظهور الإسلام، وكتابه الذي تناول فيه الأمر فلدينا منه نسخ اليوم. انظر: أبو المنذر هشام بن محمد ابن الكلبي: **كتاب الأصنام**، القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٥.

ثامناً: ضياع معظم آثار بني غسان التي أمام أعيننا اليوم.

ويبدو لنا أن كل ما سبق ذكره قد أدى في النهاية إلى اختلاف وتباين في التحقيب الزمني لفترة الغساسنة وملامحها وأبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكذا تتابع حكامهم، حتى أن المؤرخين العرب أنفسهم إنما يختلفون في عدد الملوك وأسمائهم وسنى حكمهم، وذلك بسبب أن التواريخ العربية تعطيهم فترة حكم طويلة على ما يبدو عن الحقيقة[6].

فنجد على سبيل المثال أن عددهم عند حمزة الأصفهاني ٣٢ ملكاً[7]، حكموا لمدة ٦١٦ سنة، وعند أبي الفداء ٣١ ملكاً، ووصل عددهم عند البعض إلى ٣٧ ملكاً[8]، وعند المسعودي وابن قتيبة ١١ فقط[9]. ويرى جرجي زيدان أن عددهم سبعة عشر ملكاً، وأنهم قد حكموا في الفترة ما بين سنة (٢٢٠ إلى ٦٣٣م)[10]، وهذه قائمة بأسمائهم:

١. جفنة بن عمرو (مزيقياء) .. حكم ٤٥ عاماً.
٢. عمرو بن جفنة .. حكم ٥ أعوام.
٣. ثعلبة بن عمرو .. حكم ١٧ عاماً.
٤. الحارث الأول بن ثعلبة .. حكم ٢٠ عاماً.
٥. جبلة بن الحارث الأول .. حكم ١٠ أعوام.

---

6 Smeaton, The Ghassanids, p. 5.

7 أحمد مغنية: **تاريخ العرب القديم**، بيروت: دار الصفوة، ١٩٩٤، ص ١١٩.

8 فاطمة جودة الله: **سورية نبع الحضارات: تاريخ وجغرافية أهم الآثار السورية**، دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص ١٠٣.

9 عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٨١؛ محمد بيومي مهران: **دراسات في تاريخ العرب القديم**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨، ص ٥٦٣.

10 جرجي زيدان: **العرب قبل الإسلام**، بيروت ١٩٦٨، ص ١٠٢.

٦. الحارث الثاني بن جبلة .. حكم ١٠ أعوام[11].

٧. المنذر الأكبر بن الحارث الثاني .. حكم ٣ أعوام.

٨. النعمان بن الحارث .. حكم ١٥ عاماً.

٩. المنذر الأصغر بن الحارث .. حكم ١٣ عاماً.

١٠. جبلة بن الحارث .. حكم ٣٤ عاماً.

١١. الأيهم بن الحارث .. حكم ٣ أعوام.

١٢. عمرو بن الحارث .. حكم ٢٦ عاماً.

١٣. جفنة بن المنذر الأكبر .. حكم ٣٠ عاماً.

١٤. النعمان بن المنذر الأكبر .. حكم عام واحد.

١٥. جبلة بن النعمان .. حكم ١٦ عاماً.

١٦. النعمان بن الأيهم .. حكم ٢١ عاماً.

١٧. الحارث الثالث بن الأيهم .. حم ٢٢ عاماً.

١٨. النعمان بن الحارث الثالث .. حكم ١٨ عاماً.

١٩. المنذر بن النعمان .. حكم ١٩ عاماً.

٢٠. عمرو بن النعمان .. حكم ٣٣ عاماً.

٢١. حجر بن النعمان .. حكم ١٢ عاماً.

٢٢. الحارث الرابع بن حجر .. حكم ٢٦ عاماً.

---

[11] قدر الكثيرون فترة حكم الحارث بن جبلة بحوالي أربعين عاماً، وجعلوها على وجه التحديد في الفترة ما بين (٥٢٨-٥٦٩م)، قضى معظمها في معارك وحروب طاحنة. راجع: محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ص ٥٦٧، وإن كان هناك من يجعلها في الفترة ما بين (٥١٨-٥٢٧م) انظر: Smeaton, The Ghassanids, p. 17

٢٣. جبلة بن الحارث الرابع .. حكم ١٧ عاماً.

بينما نجد المستشرق الألماني "نولدكه"[١٢] وقد درس بعناية معظم القوائم التي رواها الأخباريون عن أمراء الغساسنة، وفحصها ثم نقدها، وفي النهاية قارن الحاصل لديه بما وجده في الموراد السريانية والبيزنطية[١٣]، وخلص إلى أن عدد الحكام لا يتجاوز العشرة فقط، وحدد فترات حكمهم في الفترة الواقعة ما بين سنة (٥٠٠ إلى ٦٣٥م)، وهم بالتوالي:

١. جبلة أبو شمر (ت: ٥٠٠م).
٢. الحارث بن جبلة (ت: ٥٦٩م).
٣. المنذر أبو كرب بن الحارث (ت: ٥٨٢م).
٤. النعمان بن المنذر (ت: ٥٨٣م).
٥. الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر (توفي بين ٥٨٣ و ٦١٤م).
٦. النعمان بن الحارث الأصغر (توفي بين ٥٨٣ و٦١٤م).
٧. عمرو أخو النعمان (توفي بين ٥٨٣ و٦١٤م).
٨. حجر بن عمرو (توفي ما بين ٥٨٣ و٦١٤م).
٩. جبلة بن الأيهم (ت: ٦٣٦م)١٤.

---

[12] ثيودور نولدكه Theodor Nöldeke (١٨٣٦-١٩٣٠م): شيخ المستشرقين الألمان، أتقن العربية والعبرية والسريانية، وحصل على الدكتوراه عن تاريخ القرآن الكريم، وعين مدرساً للتاريخ الإسلامي في جوتنجن، ثم أستاذاً للتوراة واللغات السامية في كييل. انظر: عبد الله محمد الأمين النعيم: **الاستشراق في السيرة النبوية**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص ٦١.

[13] جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت: دار العلم للملايين، وبغداد: مكتبة النهضة، ١٩٧٦، الجزء الثالث، ص ٤٤٤.

[14] Nöldeke, Th., **Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden,** Leyden, 1879, pp. 79-81.

ويتقلص عدد الحكام أكثر من ذلك قليلاً عند "هرشفيلد" Hartwig Hirschfeld ليصل إلى سبعة حكام فقط[15]. ومهما يكن من أمر، فإن أول ملوكهم الذي يمكن الاطمئنان إليه تاريخياً هو جبلة وابنه الحارث[16].

ومما يسترعي الانتباه على كتابات نولدكه أنه لم يطلق على أي من حكام الغساسنة لقب ملك، وإنما حرص على أن يمنح الواحد منهم لقب أمير فقط، وهكذا خرج علينا بكتابه "أمراء الغساسنة"[17].

وربما أن عدداً من حكام الغساسنة الأوائل لم يكونوا أكثر من مشايخ قبائل كبار، أغدق عليهم البيزنطيون بمنحهم لقب Phylarchos بمعنى والي، وأيضاً لقب Patriciius ويعني أب أو بطريق، وهكذا كان شأن أواخر حكامهم، الذين لم يزد أمرهم عن كونهم أمراء أو شيوخاً، وإن كان الرواة قد أطلقوا عليهم ألقاب الملوك[18]، وفي أواخر عهد الغساسنة حمل أمراؤهم الصغار لقب "خير الفتيان"[19].

وعلمنا من المصادر أن الإمبراطور يوستنيانوس Justinianus "جستنيان" قام بمنح الحارث الثاني (الحارث بن جبلة) لقباً رفيعاً هو "فيلارخوس" Phylarchos ويعد الأسمى في

---

15 محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ص ٥٦٣.

16 أحمد أمين: **فجر الإسلام**، بيروت، ١٩٦٩، ص ١٩؛ ديزيرة سقال: **العرب في العصر الجاهلي**، بيروت: دار الصداقة العربية، ١٩٩٥، ص ١١١.

17 تيودور نولدكه: **أمراء غسان**، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٣، ص ١١-١٥.

18 عبد العزيز صالح: **تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة**، القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٩٢، ص ١٧٧.

19 غويدي أغناطيوس: **محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام**، ترجمة: إبراهيم السامرائي، بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٦، ص ٤٠.

الإمبراطورية البيزنطية بعد لقب الإمبراطور، كما عينه في سنة ٥٢٩م سيداً على كل القبائل العربية في سورية، لما أظهره الحارث من الولاء للإمبراطور البيزنطي[٢٠]، (لوحة رقم ١).

وإذا حاولنا أن نجد تفسيراً علمياً مقبولاً لعدد الحكام الذي تقلص كثيراً عند كل من نولدكه وهرشفيلد، فإن السبب في ذلك ربما يرجع إلى أن الغساسنة عندما قدموا من هجرتهم في الجنوب، ونزلوا في شرقي الأردن وجنوب شرقي دمشق[٢١]، بأطراف سورية، ربما أنهم في البداية قد استوطنوا الأرض، ومارسوا أنشطتهم المعتادة، وسارت أمور حياتهم دون أن يدري بهم أحد، لأنهم لم يسببوا أي لون من ألوان المشاكل مع الغير، أو أن الرومان لم يعيروهم أدنى اهتمام، لعدم وجود أهمية ظاهرة لهم، أو لأنهم لم يثيروا أياً من المتاعب للإمبراطورية، وربما أنهم قد ولوا على أنفسهم حكاماً منهم، وأن هؤلاء الحكام كانوا يتعاقبون على المنصب لسنوات متعاقبة، وفي الوقت نفسه فإنهم يعرفون أسماء حكامهم وسني حكم كل منهم، حتى أنه من المقبول أن نعلم أن أكثر من حاكم منهم كانوا يتقاسمون السلطة والحكم في ذات الوقت، بتقسيم المهام والاختصاصات أو حتى مناطق النفوذ.

ونلاحظ هنا أن المؤرخين المسلمين قد أطلقوا على القبائل التي انتسب الملوك الغساسنة إليها اسم "آل جفنة"، و"آل ثعلبة"، و"آل غسان"[٢٢]، ويعد هذا الاختلاف أو الاختلاط بين مؤرخي العرب على عدد ملوك آل غسان بمثابة دليل على ما يحيط بأسرة آل جفنة من غموض، والواقع أن تاريخ الأسرة كله يكتنفه الغموض[٢٣]، كما ذكرنا سلفاً.

---

[20] لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ٣٥٠؛ مجتبى علي إبراهيم محمد: "التنظيمات السياسية في بلاد العرب قبل الإسلام"، رسالة دكتوراه غير منشورة، **كلية التربية – جامعة الخرطوم**، ٢٠٠٩، ص ١١٧.

[21] Hoberman, B., "The King of Ghassan", Illustrated by Michael Grimsdale, **Saudi Aramco World, Arab and Islamic Cultures and Connections**, Vol. 34, No. 2, March/April 1983, p. 21.

[22] عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ١٧٧.

[23] محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ص ٥٦٣.

وحتى أصل أسرة الغساسنة، فإنه قد اعتراه الشك أيضاً، فيرى المؤرخون العرب أنهم من عرب الشمال، لأن لغتهم عدنانية أكثر منها قحطانية، بل إنها لا تمت للحميرية الجنوبية بنت صلة، علاوة على أن أسماءهم، التي ذكرنا عدداً منها في قوائم الحكام، إنما تشبه في مجموعها أسماء عرب الشمال، أضف لذلك العادات والدين، والتي هي أكثر انطباقاً على عادات وديانة عرب الشمال[٢٤].

وليس باستطاعتنا الآن أن نجزم بصحة ذلك القول، إلا أنه وعلى الرغم من حدوث خلط عند المؤرخين العرب في مواضع كثيرة من كتاباتهم عن الغساسنة، إلا أن تحليلهم هذا لا يمكن أن نتجاهله بسهولة، وبخاصة فيما يتعلق باللغة التي استخدمها الغساسنة، وأكثر من ذلك أيضاً ما يرتبط بأسماءهم التي وجدناها.

أما فيما يتعلق بالديانة، وربط المؤرخين لها بسكان شمال الجزيرة العربية، فيمكننا الرد على ذلك بأن الديانة النصرانية قد انتشرت في أرجاء الجزيرة العربية، وأنها كانت موجودة في اليمن، حيث انتقلت إليها من بلاد الحبشة، وطبقاً للروايات اليونانية والسريانية النصرانية التي يعتمد كثير من الباحثين المحدثين على أرجحها حول بداية دخول النصرانية لبلاد العرب الجنوبية[٢٥]، فقد أرسل الإمبراطور قسطنطين الثاني (٣٤٠-٦٣١م) بعثة تبشيرية[٢٦] إلى ملوك حمير سنة ٣٥٤م، أقنعت

---

[24] محمد مبروك نافع: **تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام**، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٩٦.

[25] محمد بيومي مهران: **دراسات تاريخية من القرآن الكريم**، الجزء الأول: في بلاد العرب، بيروت: دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص ٣٧٧.

[26] كانت البعثة برئاسة "ثيوفيلوس إندس" Theophilos Indus الهندي، وتمكنت من إنشاء كنيسة في عدن وأخرى في ظفار وثالثة في هرمز، وجعل كنيسة ظفار بداية من سنة ٣٥٦م مقراً لرئاسة تلك الأسقفيات. انظر: عبد المعطي بن محمد عبد المعطي سمسم: **العلاقات بين شبه الجزيرة العربية والحبشة منذ أقدم العصور وحتى نهاية العهد الحبشي باليمن**، ط١، القاهرة: إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ص ١٥٥. وأصبح رئيس أساقفتها بمثابة المشرف على كنائس بلاد العرب الجنوبية. انظر: Grohmann, A., **Arabien**, Munchen, 1963, s. 29;, Hitti, P.K., **History of The Arabs**, London, 1985, p. 61.

الملك باعتناق النصرانية، ثم انتشرت الديانة بقوة في اليمن بعد الاحتلال الحبشي الثاني سنة ٥٢٥م، وبنى أبرهة كنائس كثيرة، أشهرها كنيسة القليس[٢٧].

وإذا ما بحثنا في المصادر عن أصل الغساسنة قبل تكوين دولتهم، فنجد الرواية العربية تذكر أنهم قد هاجروا من اليمن، في أثناء الفترة التي بدأت تتوارى فيها دولة تدمر في الظلام، حيث كان سقوطها يعني ضعفاً مؤقتاً للستار الواقي بين الصحراء والعالم الخارجي، لأن الدويلات العربية الأخرى التي كانت قائمة في ذلك الحين على أطراف الإمبراطورية الرومانية في سورية وبلاد الرافدين لم تكن لها قوة دفاعية كبيرة[٢٨].

وأن هجرة الغساسنة سببها الظروف الاقتصادية السيئة التي أحاطت باليمن وقتذاك، من تصدع ثم انهيار سد مأرب[٢٩]، وبعدها حدوث سيل العرم[٣٠]، وغيره من أحداث قاسية في الجنوب، أدت إلى اضمحلال دولة حمير، بعد غزو الأحباش الأول لليمن في عهد النجاشي الأعميدا، مما كان سبباً مباشراً في أن تهاجر قبائل بأسرها من أراضيها في جنوب بلاد العرب إلى شمالها، بحثاً عن أراض جديدة تسكنها[٣١]، في الوقت الذي كانت فيه الجزيرة العربية تشتهر بالجفاف والمناخ القاسي[٣٢]، (خريطة رقم ١، ٢).

---

27 سميح دغيم: **أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام**، بيروت: دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ٦٩.

28 سبتينو موسكاتي: **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، مراجعة الدكتور محمد القصاص، بيروت: دار الرقي، ١٩٨٦، ص ٢٠٤.

29 أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي: **المختصر في أخبار البشر**، القاهرة: المطبعة الحسينية بمصر، ١٩٠٧، ص ٤٥.

30 عن انهيار سد مأرب ثم حدوث سيل العرم، راجع: محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ٣٣٦-٣٥٢، ص ٣٧٧.

31 سبتينو موسكاتي: **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة الدكتور يعقوب بكر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٠٤.

32 جاك ريسلر: **الحضارة العربية**، تعريب الدكتور خليل أحمد خليل، بيروت وباريس: منشورات عويدات، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ١٢.

ولكن لا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن نقطة مهمة، وهي أن الحديث بأن قبائل يمنية هاجرت إلى تخوم الشام والعراق وأسست هناك إمارتي الغساسنة والمناذرة قول لا تؤيده المصادر الكلاسيكية "اليونانية واللاتينية" أو السريانية، التي تشير بوضوح إلى أن هذه التخوم كانت في الأصل مناطق عامرة بالسكان، وتعيش على الموارد التجارية؛ نتيجة لمرور خطوط القوافل بهذه المنطقة، وأن الحكومتين اللتين قامتا هناك أسسهما زعماء أو رؤساء قبائل من المنطقة ذاتها، دون أن نضطر إلى افتراض يخرج بنا عن حدودها[٣٣].

وإذا رجعنا ثانية لحديث مؤرخي العرب، فيزعم الإخباريون أن الذي قاد الغساسنة في خروجهم من اليمن هو عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة، وقد نزح معه من اليمن قومه من الأزد[٣٤]، فنزل المدينة ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر، ومنهم الأوس والخزرج، ونزل مكة رهط حارثة بن عمرو بن عامر، وهم خزاعة، أما جفنة بن عمرو فقد نزل بالشام، وهم الغساسنة[٣٥].

ونتيجة لهذه الهجرات القبلية فقد ذاق الفرس الساسانيين والرومان مر العذاب، حيث كان الأعراب يغيرون عليهم وعلى حدودهم ومناطق نفوذهم بشكل متكرر، علاوة على اعتراض القوافل التجارية[٣٦] وسلبها ونهب ما تحمله من سلع وبضائع، مما اضطرهم إلى إقامة الحصون على أطراف الصحراء، كما قاموا بمد الطرق العسكرية، ليأمنوا غارات البدو واعتداءاتهم٣٧.

ويصف بروكوبيوس العرب، ومنهم الغساسنة والمناذرة، في حروبهم بأنهم يجيدون السلب والنهب، ولكنهم لا يجيدون اقتحام المدن، وأنهم في أحوال كثيرة يشنون الحروب فيما بينهم،

---

33 لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ٦٨.

34 Hoberman, The King of Ghassan, p. 21.

35 أحمد أمين سليم: **معالم تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت: مكتب كريدية إخوان، د.ت.، ص ١٨٧-١٨٨.

36 عبد المنعم عبد الحليم: تاريخ الجزيرة العربية، ص ٩٢.

37 عبد اللطيف الطيباوي: **محاضرات في تاريخ العرب والإسلام**، الجزء الثاني، بيروت ١٩٦٦، ص ١٠.

(لوحة رقم ٢)، وأنه لا يأتي ذكرهم حينما تعقد المعاهدات، بل لقد ذكر بعضاً من قبائلهم بوصفهم Barbaroi أي برابرة[٣٨]، وكذلك بأنهم Anthropophagoi يعني من أكلة لحوم البشر[٣٩].

وربما كان لدى بروكوبيوس دوافعه لكي يقول بذلك، مثل كثرة الحروب والمعارك بين القبائل، وما عاصره بنفسه من تطاحن مستمر بين الغساسنة والمناذرة، ولكن يظل حديثه غير مقنع في إنكاره قدرة العرب على اقتحام المدن، وأيضاً وصفه لهم بالبرابرة، وبخاصة إذا تذكرنا أن المؤرخ عاش في القرن السادس الميلادي، وهو القرن الذي عرفت فيه إمارة الغساسنة قدراً ملموساً من التقدم في النواحي المعمارية والدينية والثقافية من جهة، ومن جهة أخرى فهو القرن السابق مباشرة لظهور الدعوة الإسلامية التي كانت نقطة التفجير للتوحيد السياسي والديني لشبه الجزيرة العربية وللفتوحات العربية التي سقطت أمامها الإمبراطورية الفارسية وقسم كبير من الإمبراطورية البيزنطية[٤٠].

وعامة، فقد انتهى الأمر بقناعة الرومان بأن القوة في هذا الوقت كانت ضرورة لا مفر منها مع القبائل العربية، وأن اتباع الصرامة لازم تجاههم، من أجل كبح جماحهم، وللحد من إغاراتهم المتكررة للحدود، ليكون الغساسنة المنطقة العازلة ضد البدو الذين اخترقوا الأراضي الرومانية[٤١].

وتعكس المصادر البيزنطية للقرنين الرابع والخامس الميلاديين اتجاهين سياسيين للامبراطورية تجاه هؤلاء العرب، حيث يهدف أحدهما إلى إخضاعهم وربطهم بمعاهدات واتفاقات،

---

[38] ليس بالضروة أن مسمى البرابرة هنا يدل على التحقير أو التقليل من شأن العرب أو إهانتهم، وإنما على الأغلب قد يعني أنهم كانوا يتحدثون بلغة لا يفهمها الرومان.

[39] لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ٧٩؛ Hyper ton Polemon: 11, 19:12, 28:12-14, 1:5, 1, 19:11, 15

[40] لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ٢٢٨.

[41] مجتبى علي: التنظيمات السياسية في بلاد العرب، ص ١١٧–١١٨.

تتم إما عن طريق القوة، أو بالطرق الدبلوماسية، وأما الاتجاه الآخر فهو العمل على صبغهم بحضارتها، وعلى وجه خاص إدخالهم في عقيدتها المسيحية، مما أدى في المسيحيين العرب إلى شعور جديد من الولاء الذي كان يفوق ولاءهم القبلي بشدة، وليس له علاقة بالمبادئ القبلية المتوارثة، وإنما هو راجع للكنيسة المسيحية، وكان هذا الولاء الجديد يبدو جلياً في ساحات المعارك، كما أثرت المسيحية على الحياة الأدبية للعرب في القرن الخامس كما فعلت في القرن الرابع[٤٢].

وقد برز ثلاثة من الكتاب الكلاسيكيين، ظهروا في المرحلة المتأخرة من العصر الروماني، الواحد منهم هو "يوسيبيوس" Eusebios الذي ألف كتاباً عن أحداث تاريخ اليونان والرومان تحت اسم "الحوليات" Chronika أشار فيه إلى العرب، والمؤرخ الثاني هو "أميانوس ماركلينوس" Ammianus Marcellinus الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، وكان آخر المؤرخين الرومان العظام، وهو لم يهتم بإعطاء صورة مفصلة لاقتصاديات شبه الجزيرة أو حتى جغرافيتها الدقيقة، على نحو تفصيل سترابون وبلينيوس وبطلميوس الجغرافي، أو من أتى قبلهم من الكتاب الكلاسيكيين، وأما الثالث فهو المؤرخ "بروكوبيوس"[٤٣] Procopius الذي تحدث كثيراً عن العرب في واحد من كتبه أعطاه تسمية "عن الحروب" Hyper ton Poiemon والكتاب يقع في ثمانية أجزاء، خصص الجزأين الأولين منها للحروب بين البيزنطيين والفرس، وتحدث بإفاضة عن العرب في مجال حديثه عن إمارتي الغساسنة واللخميين، اللتين كانتا تمثلان

[42] Shahid, I., **Byzantium and the Arabs in the Fifth Century**, Dumbarton Oaks Research Library, Washington, 1989, pp. 528-29.

[43] يُعتبر **بروكبيوس** المؤرخ الكنسي لعصر جستنيان، وكان موضع ثقة لكبار رجال الدولة والقادة، ومنهم القائد الروماني بلزاريوس، الذي رافقه خلال حروبه في أوروبا والمغرب وآسيا الصغرى، فجاءت كتاباته معاصرة للأحداث، ومنها كتابه "عن الحروب"، الذي تحدث فيه عن المعارك التي دارت بين الغساسنة واللخميين، وكذا عن غزو الأحباش لليمن. راجع: إبراهيم محمد بيومي مهران: **في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم**، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٣٠٢، هامش رقم ٣٢.

المنطقتين الحدّيتين، أو منقطتي نفوذ الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية على التوالي، ومن ثم كان لهما دور في الصراع العسكري بين هاتين الإمبراطوريتين[٤٤].

وهكذا، فإننا نجد أنفسنا أمام نوعية مختلفة من المعلومات المتاحة عن دولة الغساسنة، فبينما كان اتجاه الكتاب الكلاسيكيين حتى هذه الفترة فيما يجمعونه من أخبار عن العرب وعن شبه جزيرة العرب، إما يمثل محاولة للتعرف العلمي العام بالمنطقة وسكانها[٤٥]، كما كان في المرحلة التي عاصرت الكتاب الأول في القرن الخامس ق. م.، أو اهتماماً اقتصادياً في أساسه، كما كان الحال في العصر المتأغرق، أو اهتماماً موسوعياً عملياً وسياسياً، وهذه المرحلة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية كانت تسودها مجموعة من التيارات أو العوامل، نقلت اهتمام الكتاب الذين ظهروا خلالها فيما يتعلق بالعرب وشبه الجزيرة العربية من الأشكال السابقة إلى شكل جديد[٤٦]، كما أن المصادر الأدبية، عندما تستخدم بحكمة وبعناية شديدة، يمكن أن تلقي الضوء على عدد قليل من الشخصيات الرئيسية في دولة الغساسنة[٤٧].

وفي هذا الصدد سيطر على الرومان، بين عدة عوامل أخرى، ثلاثة عوامل رئيسية: الواحد منها هو الصراع مع الإمبراطورية الفارسية، والثاني هو الصراع مع البرابرة، والثالث هو انتشار العقيدة المسيحية آنذاك في أرجاء الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ومن ثم فقد كان اهتمام الكتاب الرومان بالعرب وبشبه الجزيرة، اهتماماً جانبياً، يكاد ينحصر من جهة في الإمارتين العربيتين الحديثين، اللتين تتبع إحداهما الإمبراطورية الرومانية الشرقية وهي إمارة الغساسنة، وتتبع الأخرى الإمبراطورية الفارسية المناوئة وهي إمارة المناذرة، ومن جهة أخرى في الاعتماد على العرب كجنود يعملون بشكل أو بآخر ضمن القوات الرومانية في المعارك بين الرومان والبرابرة، ومن جهة

---

[44] لطفي عبد الوهاب يحي: **العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص ٢١٨-٢٢٥.

[45] Shahid, Byzantium and the Arabs, p. 529; Hoberman, The King of Ghassan, pp. 21-22.

[46] لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ٢١٧.

[47] Hoberman, The King of Ghassan, p. 22.

ثالثة في مدى تقبل العرب للعقيدة الجديدة، وموقفهم إزاء رجالها والمبشرين بها في المنطقة، وضمن هذه العوامل الثلاثة انحصر اهتمام الكتاب الكلاسيكيين في هذا العصر بالعرب كمجموعة بشرية يتحدثون عنها بشكل جانبي في أثناء حديثهم عن أحوال العالم الروماني وصراعاته، وحين يتحدثون يكون حديثهم عن صفات هذه المجموعة البشرية التي يود الرومان أن يعرفوا إلى أي مدى يمكنهم الاعتماد على خصائصها العسكرية أو ولائها السياسي أو استجابتها الدينية للعقيدة الجديدة[٤٨].

وكانت الإمبراطورية ترى أن التساهل مع هؤلاء العرب معناه في نظر الأعراب أن هناك ضعفاً يكتنف تلك الحكومات، وهو ما يعني طلب المزيد[٤٩].

وعلى ما يبدو، فقد حدث أول صدام بين الغساسنة والرومان بعدما استقر آل غسان في أرض حوران بجنوب شرقي دمشق، حيث كان هناك قوم يعرفون بـ"الضجاعمة"[٥٠]، من قبائل بني سليح بن حلوان بن قضاعة، وكانوا يدينون بالنصرانية، ويرضخون لحكم الرومان الذين استخدموهم لحماية الحدود الصحراوية لأملاكهم[٥١].

وكانت المنطقة التي اختارها الغساسنة ليستقروا فيها تقع على مقربة من الطرف الشمالي لطريق التجارة الدولية[٥٢]، الذي كان يربط ما بين مأرب (عاصمة سبأ) في الجنوب ودمشق في الشمال[٥٣]، وقتما كان العرب يشتهرون بأنهم كانوا أهل تجارة

---

48 لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ١٢٧-١٢٨.

49 شكران خربوطلي: **شبه جزيرة العرب والصراع الدولي عليها منذ القرن الرابع حتى ظهور الإسلام**، دمشق: دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٥، ص ١٣٩.

50 مجتبى علي: التنظيمات السياسية في بلاد العرب، ص ١١٥.

51 محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ص ٥٦٢.

52 عن التجارة الدولية ونشاط العرب خارج نطاق الجزيرة العربية، انظر: عبد المنعم عبد الحليم سيد: "النشاط التجاري للعرب القدماء خارج الجزيرة العربية من خلال النقوش العربية القديمة وروايات الكتاب الكلاسيكيين"، **مجلة بحوث ندوة التجارة عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ**، حصاد ٨، القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب، ٢٠٠٠، ص ١٧-٤٢.

53 كان الطريق التجاري الذي يبدأ من مأرب يتجه شمالاً نحو منطقة الجوف، ماراً بمعين (عاصمة دولة معين)، حتى يصل نجران، ثم يسير بمحاذاة البحر الأحمر، ولكن على مسافة =

وعمران[٥٤].

وبعد فترة من استقرارهم بالمنطقة، دبت الخلافات بين الغساسنة والضجاعمة، لأن سليح فرضت جباية سنوية مقدارها دينار واحد عن كل رجل، ورفض الغساسنة ذلك الأمر بالكلية، لأنهم لم يعرفوا الجباية طوال حياتهم، وامتنعوا عن دفعها إلى بني سليح، الذين كانوا تحت حماية الرومان، فحدث الصدام العسكري بين الطرفين، ثم اشترك الرومان لنصرة حلفائهم من بني سليح، الذين كانت أجسامهم مع قيصر وقلوبهم مع غسان، وتكررت المواجهات، ومنها "يوم بالعة"[٥٥]، الذي انهزم فيه الرومان، ومنها اللقاء الذي تم بمرج الظباء، حيث وقفت فيه قبائل العرب من سليح وكناية وجذام إلى جانب الرومان، وهو المعروف عند العرب بـ"يوم حليمة"[٥٦] (لوحة رقم ٢)، وفيه انتصر الحارث بن جبلة على المنذر الثالث أمير الحيرة وقتله في هذا اليوم[٥٧].

وبعد عدة مصادمات وافقت غسان على الصلح[٥٨] نظير دفع الجزية[٥٩]، ورضوا بدفع الخراج المقرر، فكانوا يجبونهم لكل رأس ديناراً، وديناراً ونصف، ودينارين، كل سنة، ويتوقف تقدير القيمة على حسب أقدارهم[٦٠].

=

بعيدة منه، حيث توجد سلسلة من العيون والآبار، حتى واحة العلا بشمالي الحجاز، ومنها يتجه إلى البتراء (عاصمة الأنباط)، ومنها إلى غزة. انظر: عبد المنعم عبد الحليم: تاريخ الجزيرة العربية، ص ٦.

54 فيليب حتى: **العرب تاريخ موجز**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١، ص ٢٩.

55 لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ٢٥٤.

56 عز الدين أبو الحسن علي المعروف بابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، الجزء الأول، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص ٤٨٩-٤٩٠.

57 عبد المنعم عبد الحليم: تاريخ الجزيرة العربية، ص ٤٧.

58 مجتبى علي إبراهيم محمد: "التنظيمات السياسية في بلاد العرب قبل الإسلام"، رسالة دكتوراه غير منشورة، **كلية التربية – جامعة الخرطوم**، ٢٠٠٩، ص ١٥٩.

59 حسين الشيخ: **العرب قبل الإسلام**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣، ص ١٥٩.

60 جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ص ٣٩٧.

وكانت المطالبة بالجزية هذه المرة بالقرب من باب دمشق، الذي عرف لذلك السبب باسم "باب الجابية"، وهذا يعني أن الغساسنة كانوا يتقدمون نحو قلب سورية، مما أدى إلى اشتعال الحرب من جديد، ووقفت سليح إلى جانب الرومان، بينما أتت المعونة إلى الغساسنة من بني عمومتهم في يثرب، وانتهى الأمر بانتصار الغساسنة، حتى أن قيصر اضطر إلى صلحهم[٦١].

ونرى أن حل الصلح بين الطرفين كان أمراً لا مفر منه بتاتاً، بل أنه الخيار الأصوب للطرفين، فمن خلال هذه الصدامات العسكرية المتكررة، أدرك الرومان مدى قوة بني غسان العسكرية، واعترف القيصر بالمكانة التي حققوها في سورية[٦٢]، وأنهم قوة لا يستهان بهم، وأن الأفضل للرومان أن يتجنبوا مصادمتهم، بل ويستغلوا هذه القوة في صالحهم، عوضاً عن جنود الإمبراطوررية[٦٣]،

وهكذا، فقد شاءت الأقدار في النهاية أن يتفق الطرفان المتصارعان، بعد إجراءات تفاوض بينهما، على أن تعطى غسان الذمة، وكذا أن يكون لها الحق في الدخول والخروج من البلد والمرعى دون قيد أو شرط، إضافة إلى النصرة ضد العدو، وأيضاً المواصاة والعدل، أي أن الأمر قد آل بالغساسنة إلى النصر، وانتزاعهم للسيادة في كل البلاد من الضجاعمة رؤساء سليح، بعد أن تكبدوا عناء ومشقة عدد من الوقائع العسكرية، بينهم من جهة، وبين سليح يدعمهم الرومان من الجهة أخرى[٦٤].

وكما نعلم، فإن الجزيرة العربية وقتذاك كانت تقع بين القوات أو الإمبراطوريات الكبيرة؛ في الشرق حيث الفرس، وفي الغرب حيث الدول المتأغرقة التي قامت في مطلع القرن الثالث على أنقاض إمبراطورية الإسكندر الأكبر، ثم الإمبراطورية الرومانية، ثم الإمبراطورية البيزنطية، وأن هذه

---

[61] حسين الشيخ: العرب قبل الإسلام، ص ١٥٩.

[62] مجتبى عليس: التنظيمات السياسية في بلاد العرب، ص ١١٥.

[63] أبكار السقاف: **الدين في شبه الجزيرة العربية**، بيروت: دار الانتشار العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، ص ٥١

[64] أحمد سليم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٨٨.

الإمبراطوريات جميعها كانت معظم الوقت تتصارع في علاقاتها، وفي خلال ذلك كان سكان المنطقة ينشطون بأشكال وصور مختلفة حسب نوعية الظروف التي تبرز من مرحلة إلى مرحلة، فتقوم لهم دول مستقلة مثل مملكة تدمر أو مملكة الأنباط أو إمارات تابعة أو شبه تابعة مثل إمارة المناذرة في الحيرة أو دولة الغساسنة في الشام[٦٥]، وتنشط الخطوط التجارية من حين لآخر إذا تمخضت كل هذه العلاقات أو بعضها عن ظروف مواتية، أو تنشط المواجهات العسكرية في ظروف أخرى، فيتم الاتصال سلاماً أو عنفاً[٦٦].

وحماية لمصالحهم وحدودهم السياسية، فقد عرف الرومان بأهمية الغساسنة، وبقوتهم العسكرية وخبرتهم الجيدة في أمور الحرب، ومقدرتهم على هزيمة القبائل العربية والأعراب المنتشرين على التخوم، والذين يمثلون تهديدات متكررة للرومان، هم في غنى عنها، ولذا فقد اتفق الرومان مع الغساسنة على أن يدعموهم، وأن يحمي كل طرف منهما الآخر في حال إذا ما اقتضت الأمور[٦٧]، وعلى ذلك فقد حالفوهم على أن يمدهم الرومان بأربعين ألف فارس إذا هاجمهم أي من قبائل العرب، معترضين على تحالفهم من الروم أو لأي سبب آخر، وفي المقابل أن يقوم الغساسنة بدعم الرومان بنصف هذا العدد، أي بعشرين ألف فارس، إذا ما هاجمهم الفرس الساسانيون[٦٨]، على أن لا يدخلوا بينهم وبين فارس[٦٩].

وعلى قدر المحاولات التي بذلت من أجل توحيد القبائل، إلا أن البدو في جملتهم ظلوا أحراراً من أي قيد أو تنظيم سياسي، فلم يطلبوا وحدة فوق قرابة الدم التي وحدت بينهم في قبائل،

---

65 سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٢٠٤.
66 لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ٧٩.
67 ابن خلدون: ص ٢٧٩.
68 محمد جمال الدين سرور: **الدولة العربية الإسلامية منذ العام الأول للهجرة وحتى نهاية العصر العباسي الأول (١-٢٣٢هـ/ ٦٢٢-٨٤٦م)**، القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٥، ص ٣٦.
69 جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ص ٣٩٨

وإنما كانوا يجوبون بلادهم الرملية الشاسعة مستقلين بعضهم عن بعض، فالقبيلة هي مجموعة من العشائر والقرى يسودها نظام اجتماعي وثيق يربط أفرادها بعضهم ببعض[٧٠]، وقد حفظت لنا الرواية العربية تنافسهم وتصارعهم، فأيام العرب تعج بحروب وثارات لا حصر لها[٧١]،

ونتيجة لموقع دولتهم الحيوي، فقد قام الغساسنة، بعد استقرارهم وتوطيد مكانتهم في الشمال، بدور جد خطير في التجارة الدولية بين بلاد العرب وسورية والرومان[٧٢]، ويبدو ذلك جلياً فيما كانوا عليه من الثراء والترف، وفيما شيدوه من القصور والمنازل والمرافق العامة، كالحمامات العامة والمسارح والأديرة، ولا تزال أطلال آثار ما شيدوه من القصور ظاهرة في مدينة بصرى[٧٣]، التي اتخذوها عاصمة لحكمهم، بعد أن حكموا من "جليق" وهي دمشق[٧٤] الحالية، قبل أن يستقروا في "الجابية" في منطقة الجولان، جنوب غربي دمشق[٧٥]، (خريطة رقم ٣).

وتوجد بقايا آثارهم أيضاً في بعض أنحاء الشرق والجنوب من جبال حوران، وهناك من المصادر ما تذكر أنهم قد عمروا ما يقرب من ثلاثمائة من القرى والمدن[٧٦]، حيث كانت ديارهم تمتد في اليرموك والجولان وجزء من الأردن وحوران البلقاء، وأحياناً في فينيقيا، فضلاً على اشتمالها

---

[70] إبراهيم مدكور وآخرون: **معجم العلوم الاجتماعية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٥٧ م، (مادة قبيلة)، ص ٤٦٥-٤٦٦.

[71] سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٢٠٥.

[72] انظر: عبد المنعم عبد الحليم: النشاط التجاري للعرب القدماء، ص ١٧-٤٢.

[73] تقع مدينة بصرى جنوب شرقي دمشق، وهي نفسها المدينة التي أصبحت فيما بعد مركزاً للأنباط، بعد أن سقطت عاصمتهم البتراء في عهد الإمبراطور تراجان، سنة ١٠٦م. انظر: عبد المنعم عبد الحليم: تاريخ الجزيرة العربية، ص ٦٩، ٩٢. وعن تاريخ وآثار مدينة البتراء انظر: Browning, I., Petra, London: Chatto & Windus, 1982.

[74] أبو الحسن أحمد الحميري: **فتوح البلدان**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨، الجزء الأول، ص ١٦٩.

[75] مجتبى علي: التنظيمات السياسية في بلاد العرب، ص ١١٦.

[76] عرفان محمد حمور: **قواعد الأمن في مجتمعات العرب القديمة**، بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ٢٠٠٠، ص ١٥٠.

على سوريا وفلسطين[٧٧]، (خريطة رقم ٤).

وعلى أية حال، فإن قيام ونشأة دولة الغساسنة يمثل واحداً من التنظيمات السياسية التي عرفتها شبه الجزيرة العربية، في تحول التجمعات القبلية إلى إمارات أو ممالك تابعة للإمبراطوريات الكبرى، وكان مرجع قيام دولة الغساسنة قاصراً على أسباب عسكرية ومصالح سياسية بحتة، انتهت بتشكيل دويلة شكلية، في صورة ولاية حدية حاجزة Buffer State حتى يتخذ منها الرومان مجناً، يقيهم شر هجمات البدو عليهم من أطراف الصحراء المحيطة بحدودهم السياسية، ومن ناحية أخرى من أجل أن يثيروا الغساسنة ضد عدوهم الرئيسي الفرس الساسانيين، ويستعينوا بهم عليهم[٧٨].

ولذا فقد ظهر الغساسنة طوال الوقت وهم يدينون بالولاء والإخلاص التام لدولة الرومان البيزنطية وأباطرتها، ومن ذلك أنهم كانوا يجمعون الجزية من القبائل العربية لصالح الرومان، كما كان أسلافهم آل سليح يفعلون من قبل، ولكن في المقابل أيضاً فإن الغساسنة كانوا يحققون لأنفسهم منافع خاصة من وراء الإمبراطورية الرومانية بشدة، وكذلك فإنهم كانوا يتحركون بثبات وثقة، ويعملون باسم الإمبراطورية[٧٩].

وهكذا ازداد الغساسنة قوة، وأصبح لهم مكانة في المنطقة، ويهابهم رؤساء قبائل العرب، وبازدياد قوتهم اعتمد الرومان عليهم كحلفاء أقوياء، يمكن مساعدتهم في الصراع ضد الفرس الساسانيين، الذين دأبوا على تهديد الولايات الرومانية الشرقية؛ لذلك زادوا من صلاحيات الغساسنة ليتمكنوا من تكوين دولة حدودية ضمن نطاق الدولة الرومانية، فأصبح الغساسنة حلفاءً للرومان، واشتركوا معهم في حروبهم مع الفرس وحلفائهم المناذرة، بجيش قوي مكون من أبناء القبائل العربية المؤيدة لهم٨٠.

---

77 محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ص ٥٦٦.

78 محمد مبروك نافع: تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام، ص ١١١.

79 عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ١٧٧.

80 جاسم صكبان: **تاريخ العرب قبل الإسلام والسيرة النبوية**، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٢، ص ٧٩-٨٢.

وعلى سبيل المثال، فإن بروكوبيوس، كما أشرنا سلفاً، يحدثنا في كتابه "عن الحروب" عن الحارث بن جبلة وكيف جعل الإمبراطور يوستنيانوس "جستنيان" منه ملكاً للعرب (لوحة رقم ١)، سواء أكان يقصد عرب بني غسان فقط، أو سائر القبائل العربية في سورية، ويزيد من هذه القيمة أن هذه الإشارات أو الأحداث جاءت من جهة في إطارها التاريخي الطبيعي، وهو الصراع بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، كما أن الذي رواها من جهة أخرى شخص اشترك في هذا الصراع بالفعل، وكان اشتراكه هذا على أعلى مستوى؛ إذ كان أميناً للقائد البيزنطي الذي أدار القسم الأكبر من هذا الصراع، ومن ثم، فإنه كان في الموقع الذي يجمع إلى جانب المعرفة الداخلية بالحدث معرفة أخرى بظروف التخطيط للحدث واتخاذ القرار بتنفيذه[٨١].

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن جميع ما قد وصلنا اليوم من قوائم بأسماء حكام الغساسنة وأنسابهم، والذي عرضنا له سلفاً، يدل على أن نظام الحكم في هذه الإمارات تميز بكونه فردياً ووراثياً[٨٢]، حيث كان الواحد منه يتولى السلطة خلفاً لأبيه أو شقيقه، على عكس ما رأيناه من قبل في نظام الحكم القبلي السائد في أنحاء ومناطق الجزيرة العربية[٨٣].

ويبدو أن الدول الكبرى التي كانت تتبعها هذه الإمارات لم تكن تتدخل في هذا النظام الوراثي، ولعل السبب في ذلك هو أن هذا النظام كان يمثل بالنسبة لها شيئاً من الاستقرار الذي تنشده على حدودها، وحتى حين كانت تشك في نوايا أو تصرفات أحد من هؤلاء الحكام، كانت تبقى على نظام الوراثة كما هو، ولكنها تتخذ الإجراء الذي تراه مناسباً للمحافظة على مصالحها[٨٤].

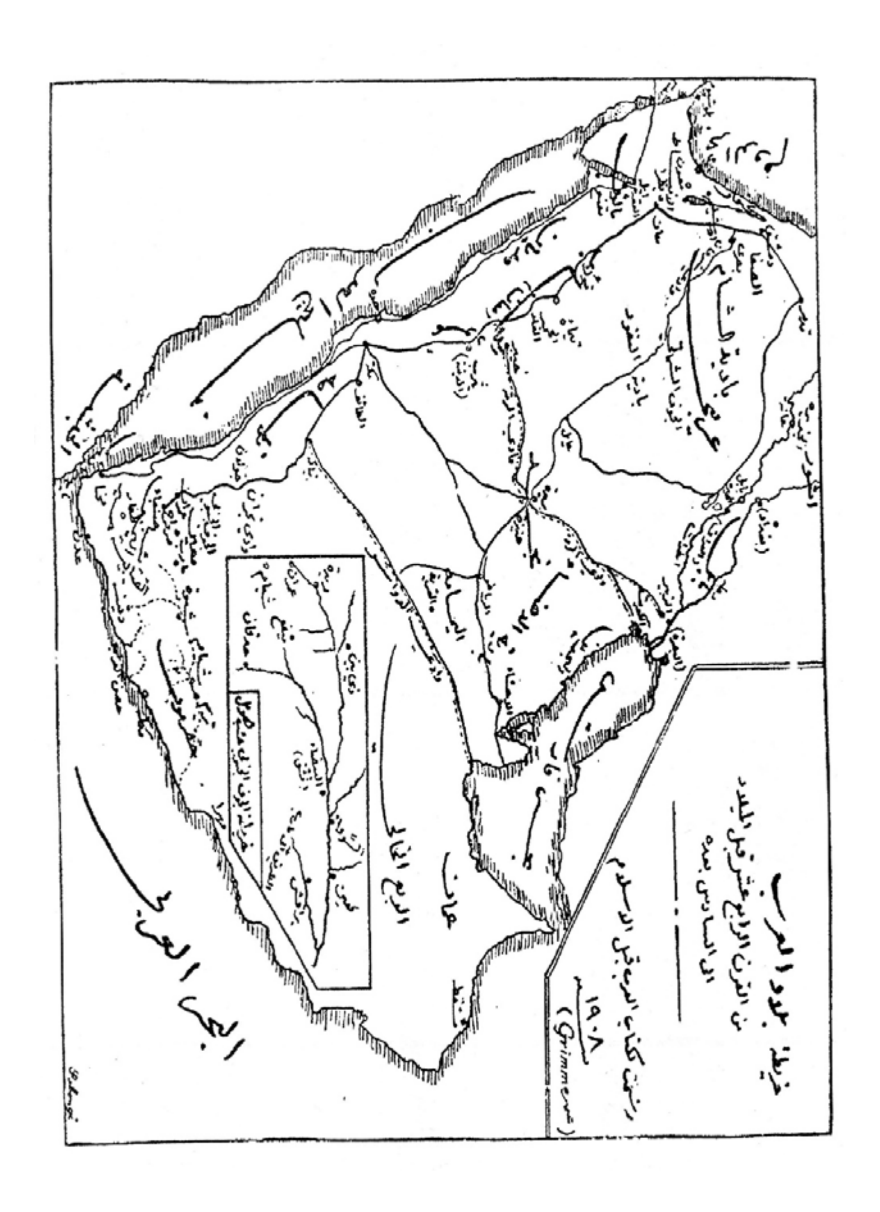
---

[81] لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ٢٢٥–٢٢٦.

[82] Hoberman, The King of Ghassan, p. 22.

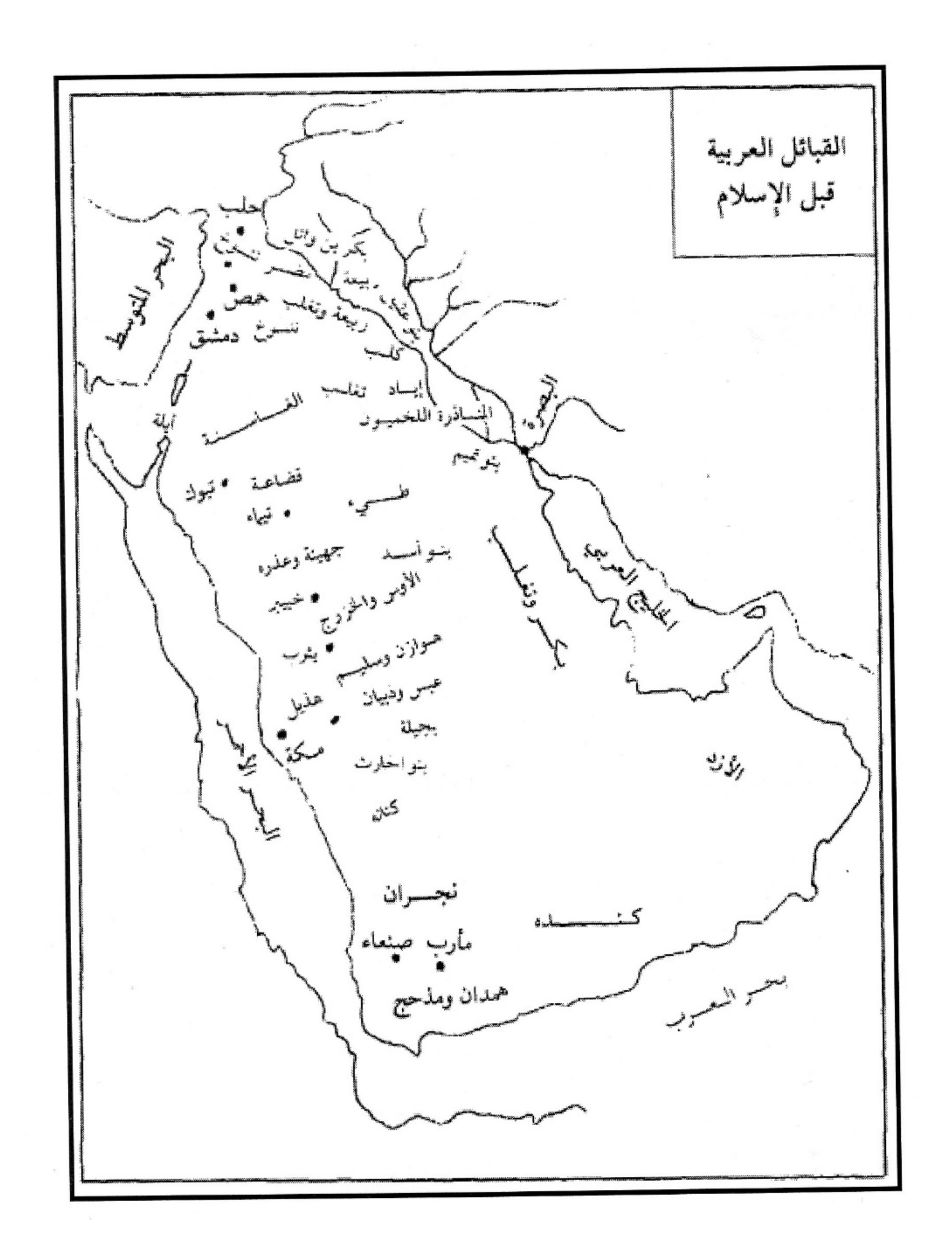
[83] مجتبى علي: التنظيمات السياسية في بلاد العرب، ص ١٢٠–١٢١.

[84] لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص ٣٦٣.



خريطة رقم (١) الجزيرة العربية من القرن ١٤ ق.م إلى القرن ٦م

جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص ١٠٤، الخريطة الثانية



خريطة رقم (٢) قبائل الجزيرة العربية قبل الإسلام

مجتبى علي: التنظيمات السياسية في بلاد العرب قبل الإسلام، ص ١٨٠، خريطة رقم ٨.



خريطة رقم (٣) منازل الغساسنة واللخميين

جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص ١٨٥، الخريطة السادسة



خريطة رقم (٤) منازل الغساسنة وقصورهم في حوران

جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص ١٩٥، الخريطة السابعة



لوحة رقم (١) الإمبراطور جستنيان يتوج الحارث، سنة ٥٢٩م

http://www.royalghassan.org/history.html



لوحة رقم (٢) الغساسنة ينتصرون على المناذرة في "يوم حليمة" سنة ٥٥٤م

http://www.royalghassan.org/history.html